انسي الحاج

مفكرة حـــرب السلام

٦ تشرين الاول

في آخر الليل وصلنا نداء حافظ الاسد الى السوريين . وأنـــا اقرأه ، نسيت أخبار المعارك . انتشلني من غمرة التفاصيل . جعلني أرى أبعد من اليوم ، من المعركة ، من نتائج المعركة . انه خطاب يعتذر عن القتل الذي ستسببه الحرب . لم يقلها ، ولكنه روح الكـــلام ، روح الرجل وراء الكلام : « لسنا هواة قتل وتدمير ... نحن طـــلاب حق وعدل ... نحن نرد عنا القتـــل والتدمير ... نحن نعشـــــق السلام ... نحن نعشق الحرية ... »

هؤلاء هم العرب الحقيقيون . العرب الانسانيون ، عرب السلم والمحبة والتسامح . ونداء الاسد الى شعبه كان يمكن ان يقوله كـــل عربي حقيقي .

فالحرب بالنسبة الينا ليست سكرة دم من أجل مجـــد القوة . انها حرب اليأس من الوسائل الاخرى كلها . انها حرب الابرياء الذين يكرهون الحرب ، ومع هذا يخوضونها لان العالم ، العالم الذي يعرف ولا يريد ان يعرف ، دفعنا الى الانفجار .

قرأت نداء حافظ الاسد وتمنيت لو يسمعه العالم بكل لغاته .

العرب الرحماء ، حتى الحرب لن تعمي انسانيتهم .

وكم يبدو غيرنا حتى في السلم ، من أقصى العالـــم « المتحضر » الى اقصاه ، متوحشا تحت قناع الحضارة .

٧ تشرين الاول

مدبرة ... ليست مدبرة ...

مدعومة ... ليست مدعومة ...

ملغومة ... ليست ملغومة ...

لماذا اشتعلت هذه الجبهة ولم تشتعل تلك ؟ لماذا قالوا كذا ولـــم يقولوا كذا ؟ ما تراه يكون وراء الظواهر ؟

وتكرّ السلسلة . تساؤلات تستلذ الغموض وغموض يستلـــــــذ التساؤلات وثرثرة فوق الدم .

وعلى الجبهات جنود يموتون وجنود سوف يموتون .

ما أثقل النفوس المعقدة !

وما أطيب النفوس البسيطة ! وما أسعدها !

البسطاء يقولون : حرب .

والحرب هي الحرب في نظر البسطاء ، لا تعقيد ولا فلسفة .

البسطاء يعرفون انها الحرب ، وهذا يكفي .

ويصلون .

والله يسمع صلاتهم .

٨ تشرين الاول

اذا اعتبرنا الوجود قوسا طرف منه الحياة والطرف الآخر هـــو التاريخ ، فاللحظات التي نعيشها ترخي طرف الحياة لتوصل التوتـر في طرف التاريخ الى ذروته . التاريخ يسحبنا الآن مـــن الحيـــاة ويحتل الساحة .

من يصنع التاريخ ؟

غالبا ما نعلمنا ان التاريخ يصنعه المتمردون على الحياة ، المغامرون بها ، المؤمنون بالتاريخ ايمان الموحدين بالله . وهكذا يصبح التـاريخ نوعا من الديانة ، تراوح طقوسها بين العبقرية والارهاب والحرب .

وفي هذا التصنيف لصانعي التاريخ ، غالبا ما أبقي العرب خارجا. اعتبرناهم كلنا على وشك الانقراض لان التاريخ يصنع من دونهم .

اليوم تمرد العرب على التاريخ .

تمردوا على التاريخ الذي يصنعونه لهم دون ارادتهـــم وبرغـم ارادتهـــم .

وأجمل صفحات التاريخ لم يكتبها « صانعو التاريخ » الموالون له والشغوفون به كأنما هو الله ، بل كتبها المتمردون على التاريخ .

وكتبوها كرامة للانسان وتمجيـــدا للخير الذي فيه وانقـــاذا للجزء اللازمني منه ، للجزء الذي لم يستطع ان يسحقه التاريخ .

وهذه هي حقيقة مفاجأة العرب في هذه الحرب . ومفاجأتهـــم لانفسهم قبل سواهم .

مفاجأتهم هي انهم تمردوا على تاريخ يصنعه لهم العالم كله ليفرضه عليهم . هـــذا التمرد هو الانتصار الحقيقي . بل هـــو الجـواب الحقيقـــي .

وحياله تأخذ الانتصارات العسكرية حجم الشكل امام الجوهر .

٩ تشرين الاول

أمس قصفوا بور سعيد واليوم دمشق وحمص .

البعض يقول : هذه هي الحرب لا فرق بين مدني وعسكري .

سقى الله أيام زمان كانت الحرب أنبل . كان فيها قوانين شرف

يخجل المتحاربون من مخالفنها .

ألهذا تقدمت البشرية ؟

ألكي تلغي التمييز بين الاعزل والمسلح ؟ بين العاجز والقادر ؟ ألكي تهدم حدود الاخلاق ؟

هل طوت البشرية كل هذه العصور لتطور أساليب الدمار فقط وتترك وراءها مبادىء الشرف ؟

لا نصدق .

البشرية قطعت مسافات الزمان كي تزيد من اقترابها بعضها من بعض ، كي نعمق تشابك أيديها ، كي تعزز اتحادها وتضامنها لتكسر طوق عزلتها في الكون . من أجل هذا كان التقدم وبسببه . وهذا هو ما سوف يكون .

أما الجنون فموجات وتمضي .

١٠ تشرين الاول

لعل اكثر ما يؤثر في نشوة المصريين بما حققوه خلال قتال الايام الخمسة هذه ، انها نشوة أمة تقول للامم : نريد النصر من اجل حياتنا لا من اجل موت الآخرين . نريد النصر لمجد الحرية لا لفرض الاستعباد.

أليس المصريون أعرق الشعوب في حب الحياة والفرح بها ؟

الحرب المغسولة بالنيل يصبح وجهها أقل بشاعة من أي حرب .

ونكاد نطير منها حمامات سلام من أجل الغد .

١١ تشرين الاول

ترى ، ماذا يحدث من اليوم الى الاحد ؟

هل سيموت رجال كثيرون ؟ هل تكبر الحرب أم ينزل العدل فجاة بعد طول انتظار ؟

« حرب السلام » ، هكذا سماها رفيق شرف .

كان يقال ، من باب الاتهام ، ان الحرب لا تليق بالعرب .

في خمسة أيام صار يقال : والله العرب يحاربون !

وفي الغد ، وقد نلنا استحقاق الحرب ، نريد ان يعود العالم فيقول عنا : كم هم مسالمون هؤلاء العرب .

لانها حقا حرب السلام . لانها انفجار المسالمين في وجه من يرفضون السلام . لانها الحرب على الحرب .

السلام عليك أيتها الحرب ...

ملحق النهار
١٤ تشرين الاول

لا ضحايا ولا جلادون ، بل أحرار

شباك على الهواء

حماستنا هي حماسة ناس طيبين . انها حماسة من اجل الحياة. والحرب ، هنا ، شباك انفتح فجاة على الهواء بعدما كاد البيت يختنق. الدمشقيون الذين صعدوا الى السطوح يستقبلون بالمناديل طائراتهم العائدة لم يفعلوا ذلك بنشوة الغزو ، بل بنشوة الانفراج .

لقد كانت اللاحرب سدا يمنعنا من الحياة ولم تكن سدا يمنعنا من الغزو . نحن لسنا توسعيين ولا استعماريين . نحن شعب له جذور في الحياة ، وله عبقرية في الحياة ، وله شغف بالحياة يرقى الى عهود لم تكن شعوب كثيرة اليوم موجودة بعد فيها على الارض . ثم توالت علينا الشدائد والاعداء والطامعون وكسرونا .

ماذا نريد ؟ الثار ؟ كلا . أخطأ من سماها حرب الثار . نحن أرسخ من ان نكون مجرد جزر لمد او مد لجزر .

ما نريده أبسط بكثير وأجمل بكثير واصعب بكثير : انه العدل . نريد ان نحيا . نريد ان نحيا دون تأجيل ودون خوف ودون ذل . لا أن نكون ضحايا ولا ان نكون جلادين : بل أحرار .

وحماستنا هي حماسة مساجين أخذوا يبصرون تباشير الضوء يطلع من الساحات الحمراء .

فهل تفتح الحرب لنا ابواب السجن ؟

أيها العالم نرفض « احترامك »

« كنا في أوروبا ... للمرة الاولى شعرنا باعتزاز لكوننا عربا . تغيرت نظرتهم الينا . صاروا يحترموننا » .

من منا لم يسمع صديقه العائد من سفر يخبره كلاما كهذا منذ بدأت الحرب ؟

ولماذا تغيرت نظرة « العالم » الينا ؟ لاننا أثبتنا اننا « أقوياء » . وصار « يحترمنا » ..

... يوم كنا نضع ثقتنا في الامم المتحدة والقوانين والضمير العالمي ، ساعين الى حل سياسي من غير اراقة دماء ، كان « العالم » يحتقرنا .

ويوم نزعنا ثقتنا من « العالم » وتجاهلنا ضميره الكاذب ، رفعلنا قبعته وانحنى اجلالا .

أي عالم هو هذا « العالم » ؟

ألم يجد فينا ما « يحترمه » غير السلاح والحرب ؟ أهذه كل فضائلنا ؟

وتسامحنا ؟ وانسانيتنا ؟ وتاريخنا ؟ وحضارتنا ؟ وكل ما في انساننا من خير ومحبة وطيبة ؟ وحقوقنا العادلة الواضحة البديهية الصارخة ؟ أهذه كلها كان يحتقرها « العالم » ، كان يحتقرها الغرب ، لاننا لم نثبت قدرتنا الحربية ؟

سلام عليك أيها الشرق ! سلام على نومك وكسلك ! سلام على « انحطاطك » و « انهيارك » و « تخلفك » !

فالنهضة في نظر العقل الغربي هي العنف ، والتقدم هو التنكر للاخلاق ، والمدنية هي البطش ، والحق هو القوة المادية ، والتفوق هو انعدام الرحمة ، والنجاح هو غاية الغايات ، و « الاحترام » هو لمن ينتصر لا لصاحب الحق والقضية العادلة .

لقد كنا أصحاب حق وقضية عادلة ولم « ننتصر » بالمفهوم الغربي البربري ، ففقدنا « احترام » الغرب .

والآن يبدو اننا نستعيد « احترام » الغرب لا لانه اقتنع باننا أصحاب حق وقضية عادلة ، بل لاننا « أعجبناه » كمحاربين !

« احترام » كهذا من يرضاه ؟

« احترام » لا يعبأ بفضائله الانسانية الجوهرية بل تستوقفه المظاهر وحدها ، من يرضاه ؟

« احترام » يتجاهلنا كشعوب و « يحترمنا » كجيوش فقط وشرط أن تنتصر الجيوش ، من يرضاه ؟

في مملكة الوحوش لا بد ان يكون مقياس « الاحترام » أكثر نبلا من هذا .

« احترام » كهذا هو في الواقع اهانة . واننا نرفضه .

ان لهذه الحرب شفاعتين :

الاولى انها حرب أصدقاء السلام .

والاخرى انها حرب الذين خيب « العالم المتحضر » كل آمالهم ، فاضطروا ان يخاطبوه باللغة الوحيدة التي يفهمها .

وها هو بدأ يفهمها .

واذا كانت هذه الحرب شهادة للعرب فهي في الوقت نفسه شهادة

ضد « العالم المتحضر » .

وبنسبة ما « يحترمنا » « العالم المتحضر » على هذه الحرب ، بنسبة ما يدين نفسه . فبسببه وحده وقعت .

وهو الآن « يحترمنا » لاننا خضناها .

وها نحن نحتقره على هذا « الاحترام » .

ففي « احترامه » هذا فضيحته كلها .

الفعل ، الفن ، أيهما ؟

توفيق الحكيم يطلب « عملا يدويا » يساهم به في المعركة لان الكلمة ، كما قال ، لم تعد تكفي الآن .

وبالامس ، شيخ آخر هو اندريه مالرو ، شيخ كلمة وشيخ عمر ، عرض هو ايضا ان يحمل السلاح .

لماذا يتأثر الناس بنوع خاص حين تصدر بادرة كهذه عن فنان ؟ لان الفن هو ، بالضبط ، عكس الحرب . فالاول يحيي والاخرى تميت ، والاول فعل حب والاخرى اما ان تكون فعل يأس او تكون فعل جنون .

ولان الفن هو نقيض الحرب ، فعندما يقدم الفنان نفسه هدية في ساحة المعركة ويطلب ان يحمل السلاح كالجنود ، أو ان يقوم بعمل « يدوي » نافع نفعا مباشرا وسريعا ، فانما يعطي الحرب وجها انسانيا يرقى بها الى مستوى الجهاد المقدس في سبيل مثل عليا طاهرة .

يعطيها « ضميرا » ، يعطيها شفاعة عند الروح .

وهكذا يتعطل الفن ، تتعطل الكلمة حين يعمل المدفع .

وقبل ذلك قال نزار قباني ، عندما سئل كلمة في المعركة : الكلمة الآن للمعركة .

وأمس قال لي مسرحيان صديقان : أوقفنا مسرحية كنا نعدها ، ولا نعرف ان كنا سنعمل غيرها ، فلا نشعر ان هناك الآن ما نستطيع ان نقوله ..

لماذا ؟ لماذا يتعطل الفن في الحرب ؟ ربما لان الفن تامل والحرب حركة ، ولان الحركة تنسف التامل . ربما . وربما لان الفن حلم يخترق الحياة ، ولان الحرب يقظة تجتاح التاريخ .

ربما .

لكن أيبقى الفنان مشلولا امام طغيان التاريخ ؟ ام يتخطاه برؤياه ، بحدسه ، بالجزء اللازمني فيه ؟

الفعل ، الفن ... أيهما ؟ أيهما ؟

حيرة قديمة .

لكن الفنان ، اذا فضل الفعل في لحظات استثنائية من التاريخ كاللحظات التي نعيشها ، فانما يفعل ذلك عطاء منه « فوق » عطائه الاصلي . يفعل ذلك ليعطي مثلا وليس يفعله ليسحب الثقة من الفن .

فالفن هو ذاته يتضمن الفعل . يتضمنه ويبدعه ويسبقه ، ويبقى بعده .

الفعل ، الفن ... أيهما ؟ أيهما ؟

حيرة قديمة .

ويتردد الفنان احيانا ، وقد يتردد طويلا قبل ان يجيب . لكنه في النهاية يجيب : الفن .

لكل جبهته .

ولكل سلاحه على جبهته .

ولكل استشهاده ...

ملحق النهار
٢١ تشرين الاول

الياس لحود

مدافـع اعمـاق الجولان

تصحو أشواق سفوحك .. تخضر العتمات ..
تدوّن ايقاعات الوثبة في أجنحة الزمن
الصاعد من حفر التاريخ ، وطائرة
تنقضّ على طائرة تسقطها في الصخب ،
تعود الى الاجواء العربية .. بالامس
رأينا عملاق الاسطورة ينزل عن صهوات
الآلهة ليصبح في اسر الاحزان بقايا
انسان مشدود الاذنين ..

* * *

وتصدح في الاحداق مدافع اعماق الجولان
كأن الوتر السادس في القيثارة يعزف وحده ..
اعرفكم تنتظرون ، على جثث الايام ، الفرحة
اعرفكم تصبون وفي الاعماق اجيج الالحان
الخامدة يطأطىء مضغوطا .. اعرفكم في
الاودية وفي القمم الغاضبة .. مدافع
اعماق الجولان .. كأن الوتر السادس ،
طائرة تصعد في العصب الذابل ...
ينتفض الشريان العصب ، يطير
النسر تنوح الدبابات الاخرى ،
طائرة تسقط اسطوره ..
تلتطم الجهة الاخرى بالتاريخ يفيض
اللحن ويفرق آخر ضوء ، ينزل علم
عن صهوة قمه ..
يتدحرج يأس آخر ،

* * *

مدافع اعماق الجولان
وكان الفجر ينادي المرتفعات الوسطى
كانت الحان القيثارة من كل مكان تبدو
حتى من سيناء ..
مدافع اعماق الجولان
وصواريخ الليل ، انا في ليلة عرس اكبر

(بيروت ـ مرجعيون)